مجلة دراسات تاريخية

KADHAYA TARIKHIA

ISNN :718X

EISSN : 2802-6031

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/228

المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر

Cultural Resistance of Al E mir Abdelkader

د/سعيدي أمين[1]، أ.د/ سعيدي مزيان[2]

[1]مخبر الدراسات التاريخية المعاصرة بالمدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة–(الجزائر)

amine.saidi0207@gmail.com

[2] مخبر الدراسات التاريخية المعاصرة بالمدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة–(الجزائر)

smeziane68@yahoo.fr

المجلد: 09 العدد: 01 السنة 2024 الصفحات: 128- 147

تاريخ الاستلام 2023 /11/20 تاريخ القبول: 2023/12/25 تاريخ النشر: 17/ 2024/07

الملخص:

تتطرّق هذه الدّراسة إلى إبراز جانب مهم من حياة ومقاومة الأمير عبد القادر ألاّ وهو الجانب الثقافي الذي أُهمل من قبل الكثير من الباحثين والدارسين لتاريخ الأمير عبد القادر، فأردت خلالها كشف الأمير "العالم والمعلم" المختفي وراء الأمير "العسكري والسياسي"، وهذا من خلال تنظيمه للتعليم وإنشائه لمكتبة لعبت دورا تربويا كبيرا في دولته الوطنية، بالإضافة إلى نشاطه التعليمي في كل من "فرنسا، بورصة ودمشق" ويتأكد ذلك أكثر من خلال عرضي لأهم مؤلفاته من شعر ونثر وحكم ورسائل.

لنصل في آخر الدّراسة إلى إبراز الدور المهم الذي لعبه الجانب الثقافي في مقاومة الأمير من جهة ولدفع الباحثين والدارسين للاهتمام أكثر بهذا الجانب الذي أعاد بعث الدولة الوطنية الجزائرية الحديثة.

كلمات مفتاحية: الأمير عبد القادر، المقاومة الثقافية، النشاط التعليمي، مكتبة الأمير، مؤلفات الأمير.

The Summary:

This presented study is going to shed the light on the important side of Al Emir Abd-el-Kader's life and resistance. we wanted to show Al Emir as scientist and teadier hidden as a martial and political figure Throush organizing The education and founding a library That played a vital role in his national state in addition to his cultural activities in France Bursa and Damascus we highlight this by showing his impoetant works of poetry prose letters and wisdom. Last but not least we arrive to pave The way to illustrate The necessary role played by The cultural side of Al Emir Abd-el-Kader resistance in one side and pushing scientists and researchers to have more in terests on this field which revived The modern national Algerian republic on The other side.

The Key words:

Al Emir Abd-el-Kader, Cultural Resistance, Cultural Activities, Al Emir Library, Al Emir's works.

يعدّ الأمير عبد القادر رجل سيف من خلال مقاومته المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي لأكثر من خمسة عشر عاما، كما أنه صاحب قلم أيضا هذا الذي واصل به مقاومته إلى أن وافته المنية وفي هذا الصدد يقول: "إنني الآن ممن يستعمل القلم لا ممن يستعمل السيف"، ومن هذا كان الأمير عبد القادر رجل علم وقلم ويظهر ذلك من خلال تنظيمه للتعليم وإنشائه لمكتبة لعبت دورا تربويا كبيرا في دولته الوطنية، كما أن مقاومته لم تنته بطلبه للأمان يوم 23 ديسمبر 1847م، بل تواصلت وذلك حيثما حلّ سواء عندما كان في الأسر بقصر (أمبواز) أو في بورصة بتركيا أو في دمشق بسوريا، حيث فتح الأمير (العارف، المعلم) جبهة جديدة للكفاح ضد الاستعمار الفرنسي وذلك بنقله للمقاومة من الجانب العسكري إلى الجانب الثقافي (التعليم والتأليف) وحقق انتصارات على مستوى الفكر والمعرفة أنست العالم هزيمته العسكرية، وأصبح نموذجا للعالم والمثقف المسلم القادر على استيعاب حقائق عصره، والتعايش مع مختلف الديانات والثقافات في إطار التسامح الديني، الذي يستعمل أدوات كفاح جديدة، وفي هذا الصدد ورد في مذكرات الأمير ما يلي: "يجد – المقصود هنا الأمير– في الوزن والسجع والجناس ما يبحث عنه في السيف والرمح والبندقية من وسائل لردع المظالم واسترجاع الحقيقة المغتصبة في الميدان وبث روح العدل وإقرار السلم في العالم".

ومن هنا تكمن أهمية هذا المقال الموسوم بـ : المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر.

والذي يعالج الإشكالية التالية:

– ما مدى اهتمام الأمير عبد القادر بالجانب الثقافي؟

– هل يمكن اعتبار الجانب الثقافي امتدادا لمقاومته العسكرية والسياسية؟

وتكمن دوافع اختيارنا لهذا الموضوع في الكشف عن الوجه الآخر للأمير عبد القادر ومقاومته في المجال الثقافي عوض التركيز على الجانبين العسكري والسياسي اللذان أخذا حيزا لا بأس به من الدراسة والبحث.

1- تنظيم التعليم في دولة الأمير:

لقد اهتمّ الأمير بالتعليم من منطلق أنه منحدر من أسرة عريقة في العلم، فاهتم بإنشاء الزوايا في مختلف أنحاء البلاد وجعل منها العمود الفقري لنظام التعليم، فكان يزودها بالمعلمين، ويمدها بالمساعدة المالية والمواد الغذائية، وفي المقابل فإن هذه الزوايا كانت تساند نظامه باعتبارها مركزا للتربية والتعليم ومنابر بث الدعوة إلى الجهاد في المناطق التي تقع فيها[1].

وضع الأمير أسس نظام تعليمي هدفه المحافظة على وحدة الثقافة العربية الإسلامية، وتماسكها بالمحافظة على تراث الجزائريين، وتغذيتها لحركة الكفاح ضد الاستعمار، فكان من بين اهتماماته إنشاء نظام للتعليم العام بين القبائل جميعا، وأصبح التعليم لأول مرة مهمة حكومية، فقد رتب الأمير في سائر المدن والقرى علماء لتدريس فنون العلوم المختلفة، وأمر بطلب العلم واحترام أهله.

وأصبحت الدولة تجري النفقات على الطلبة القائمين بالتعليم وتعيين مرتبات للعلماء كما بذلت الدولة أقصى الجهود للمحافظة على الكتب والمخطوطات من الضياع ومعاقبة من يتلفها[2].

خلال فترة السلام (1837-1839م)، أصبح التعليم موكلا لفقهاء القبائل والزوايا في مراحله (الابتدائية، الثانوية والعالية) بعدما كان من مهام الحكومة، واستغل هذه الفترة (الهدنة) لإرسال بعثات طلابية من 30 شابّا إلى مرسيليا للتأهيل في مختلف الفنون والحرف والصنائع.

لقد عرف التعليم على عهد الأمير مراحل ثلاث وهي:

الطّور الأول: مرحلة 4 سنوات يتعلم الطفل خلالها القراءة والكتابة وحفظ القرآن.

الطّور الثّاني: يواصل تعلمه في الجامع أو مدرسة ملحقة بالأوقاف يدرس النحو والصرف والتفسير والقرآن خاصة.

الطّور الثالث: ويسمى بالتعليم العالي، يواصل تعلمه في الزوايا وأهم الجوامع يدرس النحو، الفقه، الحساب، الفلك، التّاريخ[3].

وخلاصة القول فإن عصر الأمير قد شهد بداية نهضة تعليمية لو كتب لها الاستمرار لكانت صفحة مشرقة، حيث كان بتلمسان وحدها على عهده خمسون مدرسة ابتدائية تصب في معهدين كبيرين للتعليم العالي.

2: مكتبة الأمير ودورها التربوي:

كان الأمير عبد القادر مولعا بالمطالعة وجمع الكتب واقتنائها مهما كان ثمنها ومكان وجودها، ولهذا كانت مطالعتها من أهم الأنشطة التي يتفرغ لها بعد أداء الصلاة والذكر، وكان يطالع بالدرجة الأولى الكتب ذات الطابع الديني وعلى رأسها القرآن[4]، وكانت خيمته لا تخلوا من الكتب أو المخطوطات النفيسة ويشير إلى ذلك أدريان بيربروجير عند زيارته للأمير في برج حمزة حيث أن أدريان عندما دخل خيمة الأمير المسماة (الوطاق) وجده حسب قوله: (متكئًا على بعض الوسائد وعلى يساره حولي 30 مجلدا من الكتب، وأما على يمينه فقد وضعت أسلحة فاخرة ومرصعة ... وكان كبير الكتّاب أو (الخوجات) عن يمين الأمير وأحد الشواش عن يساره)[5].

وقد كانت فرحة الأمير كبيرة عندما أهداه أدريان بيربروجير أحد الكتب النفيسة حيث يضيف تلك الفرحة (فيما يخصني قدمت إليه –أي الأمير– هدية منذ أول لقاء معه، وهي نسخة عربية خطية وجميلة جدا من كتاب "دلائل الخيرات" كانت موجودة في قسنطينة، وهي تتضمن صلوات وأدعية وغيرها من مواضيع العبادة، وقد ظهر أن الأمير عبد القادر قبلها بغبطة شديدة نظرا للموضوعات التي عالجتها ونظرا أيضا إلى كونها آتية من مكتبة بني عيسى، مساعد الباي أحمد)[6].

ولتوفير الكتاب وتسهيل عمل المعلمين والطلبة حرص الأمير على جمع الكتب واقتنائها حيثما وجدت، والحث على المحافظة عليها ومكافأة كل من يأتيه بكتاب أو مخطوط، كما أنه كان يدعوا جنوده أثناء المعارك إلى تسليمه ما يقع بين أيديهم منها[7]، ويعاقب كل من يمسكه متلبسا بإتلافها أو تمزيقها أو لم يحترم تعليمات الأمير في طرق التعامل مع الكتب والمخطوطات التي يعثر عليها أثناء

الحروب، ومن شدة تعلق الأمير بالكتب واهتمامه بها أرسل بعض تلاميذه حتى الأناضول وقونية لنسخ مخطوطات ابن العربي أستاذه الروحي الذي تأثر به[8].

كان الأمير يضع الكتب والمخطوطات التي يجمعها في المساجد والزوايا تحت تصرف العلماء والطلبة في انتظار إنهاء بناء مكتبته بتاقدامت (عاصمته الجديدة)، والتي شرع في بنائها سنة 1836م بمكان له رمزيته التاريخية، إذ كان الأمير يهدف من وراء اختيار الموقع إحياء العاصمة السياسية والفكرية والدينية القديمة للجزائر، لكن تجديد القتال مع الفرنسيين، بعد إقدامهم على خرق معاهدة التافنة سنة 1939م، جعل أشغال البناء تتوقف ويتوقف معها مشروع المكتبة[9].

اضطر الأمير عبد القادر أمام تحرشات الفرنسيين وعدم شعوره بالأمن والطمأنينة في إقامته الرسمية إلى بناء عاصمة متنقلة وهي الزمالة، يمكن تفكيكها ونقلها إلى أي مكان وإعادة تركيبها، وبذلك أصبحت المكتبة متنقلة مع الزمالة إلى غاية 15 ماي 1843م عندما هاجمها الجيش الفرنسي بقيادة الدوق دومال، فقضى عليها واستولى على مكتبتها التي تم نهب وبعثرة كتبها ومخطوطاتها وإتلاف قسم منها، وقد قدر عددها آن ذاك بحوالي 5000 كتاب ومخطوط[10].

لقد تألم الأمير عبد القادر كثيرا لذلك وهو يقتفي أثر الجيش الفرنسي، ويجمع البقايا المتناثرة للكتب الممزقة، إن قراءة متمعنة في اهتمامه بعالم الكتاب والمكتبات ليدرك مدى وعيه العميق بأهمية تأسيس مكتبة عمومية بالنسبة لدولة من الدول، باعتبارها تشكل الأداة الكفيلة بالمحافظة على الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري وتراثه، لهذا أعتبر عبد الحميد بن أشنهو بأن الجزائر لم تفقد استقلالها يوم 5 جويلية 1830م عند احتلال مدينة الجزائر، ولا يوم 23 ديسمبر 1847م عند استسلام الأمير المشروط، ولكن في يوم 5 ماي 1843م عند سقوط آخر عاصمة للبلاد، واستيلاء الفرنسيين للمرة الثانية على الخزينة العامة والأرشيف الوطني، وأمام خسارة بهذا الحجم لم يتردد يحي بوعزيز في تشبيه ما فعله جنود الدوق دومال بمكتبة الأمير بما فعله المغول بمكتبة بغداد سنة 1258م، وما فعله الإسبان بالمكتبات الإسلامية بالأندلس بعد سقوط آخر إمارة إسلامية بها وهي غرناطة، وما فعلته منظمة الجيش السري "OAS" بمكتبة جامعة الجزائر في جوان 1962م بعدما أقدمت على إضرام النيران فيها[11].

3: النشاط التعليمي للأمير عبد القادر:

3-1: نشاطه التعليمي في فرنسا:

داوم الأمير عبد القادر على تدريس العلم ومواصلة مجهوده التعليمي وإفادة الطلبة من عائلاته وأصحابه حتى وهو في الأسر بقصر أمبواز (فرنسا)، إذ قرأ عليهم حسب ابنه محمد في كتاب تحفة الزائر (الصغرى) للسنوسي في علم الكلام ورسالة محمد بن أبي زيد القيرواني في الفقه، على مذهب الإمام مالك وغيرها من المصنفات المفيدة وقد تأثر بذلك أخواه محمد السعيد ومصطفى وشرع بدورهما في تقديم بعض الدروس، أفاد بها كثيرا طلابه، إذ قاما في حلقاتهم الدراسية بقراءة صحيح البخاري وكتاب الشفاء للإمام عياض[12].

إن هذا النشاط التعليمي الواسع للأمير وهو في الأسر، كان يعكس معنوياته العالية وقوة إرادته رغم الظروف الصعبة التي كان يجتازها وهو محروم من حريته كما أن ذلك يؤكد تصور وإيمان الأمير بأن المقاومة ليست بالضرورة بالسلاح والبارود بل هناك أشكال أخرى للصمود والمقاومة، ومجالات وساحات أخرى لمواجهة الاستعمار من بينها المجال الثقافي والتعليمي، ولهذا أثر عنه أنه بعد الانتهاء من تعليم أحد أبنائه قال: (هذه آخر بندقية بقية لي)[13].

لكن رغم اشتغال الأمير بتقديم الدروس وتنشيط حلقات لهذا الغرض، فإنه كان يشعر بالضجر والعزلة، قام باختيار الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني لمآنسته ومجالسته، فانتقل هذا الأخير إلى أمبواز حيث استأنس الأمير بالشيخ وبعلمه[14].

وبعد إطلاق سراحه من قبل نابليون الثالث سنة 1852م واصل الأمير نشاطه الثقافي والفكري حيث أنه أثناء زيارته لمدينة باريس اجتمع بالعلماء الفرنسيين وناظرهم وتناقش معهم في مختلف المسائل العلمية والفكرية وعبر عن روح تسامح عالية وإيمان قوي بإمكانية تعايش الديانات والعقائد المختلفة، ثم زار دار الطباعة الأميرية الفرنسية واطلع على مختلف مراحل عملها[15].

وعبر عن إعجابه الكبير لهذا الإنجاز الحضاري لهذا لما سأله بعض الأعيان عما رآه في باريس، رد عليهم بقوله: (بالأمس رأيت صناعة المدافع التي تهدم بها الحصون والقلاع، وفي هذا اليوم، رأيت

الحروف التي تغلب بها أسر الملوك وتخرب دولهم...)، ولما اقترب موعد رحيل الأمير إلى بورصة قام بزيارة وداع واستئذان للإمبراطور نابليون الثالث الذي استقبله بحفاوة وأخبره بتفاصيل المرتب الشهري الذي خصصته فرنسا له من خزينة الدولة ثم أهداه سيفا ثمينا وقال له:(أنا على يقين بأنك لن تجرده على فرنسا...) فأجابه الأمير إجابة بليغة تعبر عن استجابته لمتطلبات المرحلة وضرورة تغيير وسائل الكفاح: (إنني الآن ممن يستعمل العلم لا ممن يستعمل السيف)[16].

3-2: نشاطه التعليمي في بورصة:

امتد نشاط الأمير التعليمي إلى بورصة فبعد إطلاق سراحه على يد نابليون الثالث 1852م، انتقل الأمير عبد القادر إلى الأستانة التي دخلها سنة 1853م والتقى فيها بالسلطان عبد المجيد والصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا، شيخ الإسلام عارف حكمت بك، ثم أدى زيارة مجاملة للسفير الفرنسي الماركينز (دولا فاييت) حيثما ذهب الأمير كان الناس يزدحمون لمشاهدته، وتقديم التحية له سواء في الطرقات أو في رحاب منازل الوزراء والأعيان، كما تنقل كثير من المهاجرين الجزائريين من تونس ومصر والحجاز والشام .... إلى بورصة لرؤيته ومن بينهم الشيخ يوسف بدر الدين المغربي المقيم في دمشق.

عند استقراره ببورصة واصل الأمير نشاطه التعليمي والتربوي، إذ كان يقضي أيامه هناك، حسب تشرشل في تربية وتعليم أبنائه وفي الدروس التي كان يقدمها في المسجد، وفي دراساته ومطالعاته الشخصية والعبادة، وهذا ما يؤكده ابنه محمد حيث يقول:(وكان رضي الله عنه يصلي الصلوات الخمس، في الجامع القريب من الدار المعروف بجامع العرب، ويقرأ فيه الدروس، فقرأنا عليه ألفية ابن مالك بشرح المكودي و(السنوسية)، شرح المصنف والإسياغوجي (للفتاوى)[17] ، إضافة إلى ذلك كان الأمير يواصل التربية مع أبنائه حتى في المنزل العائلي وذلك بانتقاء مجموعة من الكتب التي يقرؤها عليهم وذلك مثل كتاب (الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز الدباغ)[18].

3-3: نشاطه التعليمي في دمشق:

واصل الأمير نشاطه التعليمي في دمشق فبعد استئذانه السلطان العثماني، غادر الأمير عبد القادر بورصة سنة 1855م متوجها إلى سوريا حيث استقر بمدينة دمشق، فشرع في تقديم الدروس

بالمسجد الأموي وبالمدرسة الأشرفية[19] المعروفة بدار الحديث النووية، وذلك بعد تسوية النزاع الذي كان بين الشيخ يوسف بدر الدين المغربي، مسير المدرسة وبين أحد الرعايا الأوروبيين والذي استولى على الدار التابعة للمدرسة وجزءا من مسجدها، بغرض تحويلهما إلى خمارة، لكن بعد تدخل الأمير عبد القادر، بطلب من الشيخ يوسف بدر الدين، وبفعل الغيرة على الدين والحمية الإسلامية واستدعى الرعية الأوروبيّ إلى منزله واشترى منه الدار وأوقفها على الشيخ يوسف وورثته من بعده سنة 1872م ثم تكفل بترميم المسجد والمدرسة على نفقته[20].

بعد الانتهاء من أعمال الترميم والإصلاح، التحق الأمير بالمدرسة وشرع في تقديم دروسه بها 1274هـ (بصحيح البخاري) وذلك بحضور الشيخ يوسف بدر الدين، وتم تحديد موعدها مابين صلاتي الظهر والعصر، لقد نالت هذه الدروس شهرة كبيرة في سوريا مما جعل كثيرا من العلماء والطلبة يحضرونها.

لم يبق نشاط الأمير التعليمي منحصرا في المدرسة الأشرفية بل وسع مجاله ليشمل (المدرسة الجقمقية) والتي درس بها كتاب (الإتقان في علوم القرآن) للإمام السيوطي، وكتاب (الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز) للسيد احمد المبارك، ثم كتاب (الشفاء) للقاضي عياض، و(صحيح مسلم).

لقد كان الإقبال على دروس الأمير المسجدية كبيرا لدرجة أنه بعد رجوعه من رحلته إلى الحجاز قام بفتح منزله لطلبة العلم وخصص لهم وقتا محددا يقدم فيه الدروس[21].

4: مؤلفات الأمير عبد القادر:

4-1: مؤلفات الأمير في النثر:

إن أهم مؤلفات الأمير عبد القادر في **النثر** نذكر:

- كتاب (وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب)

وهو (عبارة عن تنظيمات وقوانين عسكرية وليس تأليفا بالمعنى الدقيق للكلمة، بالإضافة إلى أنه ثبت أن الذي صاغه هو كاتب الأمير قدور بن رويلة[22]، أما دوره (الأمير) فيه فهو الأفكار والتوجيهات العامة)[23] ، وزمان تدوين هذه الرسالة هو 27 أوت 1839م وترجمة هذه الرسالة لأول مرة على يد

الترجمان روسيتي (rosetty) ديسمبر 1843م وطبعت باعتناء الجنرال ماري (marrey) بعنوان قوانين من الأمير عبد القادر إلى جيشه النظامي[24]، وهي رسالة في تنظيم الجيش وترتيبه وضبط قوانينه مما يؤكد حنكة وكفاءة، الأمير العسكرية وقد لخص الأمير محمد هذه الرسالة في كتابه تحفة الزائر[25].

– كتاب (المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في الدين الإسلامي من أهل الباطل والإلحاد)

وذكر سبب تأليف الرسالة حين قال نصا في مقدمة كتابه: (فإني في أيام إقامتنا في أمبواز عند الدولة الفرنساوية الفخمة تكلم أحد رؤساء الدين المسيحي في الإسلام وقال أن الغدر وعدم الوفاء فيه غير قبيح ولا منهي عنه فسمعه بعض من له محبة ورغبة في إظهار الحق فجاء إليَّ وألحَّ في الطلب على أن أضع في هذا الأمر رسالة لتتضمن بيان ما في شرع الإسلام مما يكذب قوله وينبذ سخفه فاعتذرت إليه بالحال التي نحن فيها ثم أعاد الطلب وشدّدَ فيه وذلك حين أفضت رئاسة الجمهورية إلى فرع شجرة عظماء ملوكه لويس نابليون بونابرت، فأجبته معترفا بأنني لا أصلح لأن أكون تلميذا لعلماء الإسلام فضلا أن أكون من جملتهم ولكني سأبذل الجهد، وأذكر كلام الله سبحانه وتعالى، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلام التابعين، والخلفاء الراشدين لأنها أمور مرتب بعضها على بعض)[26].

– كتاب (مذكرات الأمير عبد القادر الجزائري).

إن هذا الكتاب هو عبارة عن سيرة ذاتية كتبها الأمير عبد القادر في أمواز 1849م وقد اختلفت الآراء حوله أيضا فهناك من يقول أن هذه السيرة من إملاء الأمير عبد القادر ودونها مصطفى بن التهامي، وعلى العكس البعض الآخر يرجع هذه السيرة إلى أنها كتبت بالاشتراك مع مصطفى بن تهامي أي أن الأمير عبد القادر كتب جزءا منها، ومصطفى بن تهامي كتب الجزء الآخر.

إن هذا الكتاب على ما هو عليه يمثل عملين منفصلين الأول منها يمثل السيرة الذاتية والعائلية والتاريخية لحياة الأمير عبد القادر، والعمل الثاني يمثل المعلومات العامة عن تاريخ الأنبياء والرسل والعرب والبيزنطيين وأخلاق هؤلاء وأولئك[27].

– كتاب (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)

ألف هذا الكتاب في بورصة (تركيا) أثناء إقامته بها رسالة (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) وسميت أيضا (رسالة إلى الفرنسيين)، وهو كتاب موجه لأعضاء المجموعة الآسيوية بطلب من الجمعية، وذلك بعد أن منحه هذا المجتمع العلمي الفرنسي قبل ذلك بقليل العضوية فيه، وكان تاريخ تأليف الرسالة في 1855م، ثم ترجمها الفرنسي (غوستاف ديرا) إلى لغته في عام 1858م وهو القنصل الفرنسي بدمشق آنذاك.

يحتوي الكتاب على ثلاثة أبواب (في فضل العلم والعلماء) وبه تعريف العقل وتكملة وتنبيه وخاتمة، و (في إثبات العلم الشرعي) يتحدث فيه عن إثبات النبوة واحتياج كافة العقلاء إلى علوم الأنبياء ... وفصل ثالث في فضل الكتابة، وليس هناك أحد يوضح لنا سبب كتابة هذه الرسالة أحسن من الأمير عبد القادر الجزائري نفسه حين يصرح في مقدمة كتابه (أما بعد: "...فإنه بلغني أن علماء باريس وفقهم العليم الحكيم العزيز، كتبوا اسمي في دفتر العلماء، ونظموني في سلك العظماء، فاهتزت لذلك فرحا ثم اغتممت ترحا، فرحت من حيث ستر الله علي، حتى نظر عباده، بحسن الظن إلي...).

فكتبت هذه العجالة للتشبه بالعلماء الأعلام، ورميت سهمي بين السهام، فتشبهوا إن لم تكونوا منهم... أن التشبه بالكرام رباح وسميت هذه الرسالة ذكرى العاقل وتنبيه الغافل ورتبتها على مقدمة، وثلاثة أبواب وخاتمة، وفي كل باب: فصل، وتنبيه، وخاتمة، أما المقدمة ففي الحث على النظر، وذم التقليد[28].

– تعليقات على حاشية جده عبد القادر في علم الكلام

من المؤرخين الذين ترجموا لحياة الأمير ونسبوا التعليقات إليه الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف والبغدادي في كتابه هدية العارفين ومن المؤرخين الذين ترجموا لحياة الأمير وأهملوا الإشارة إلى هذه التعليقات الزركلي في الإعلام ومحمد رضا كحالة في معجم المؤلفين[29].

–كتاب (المواقف في بعض إشارات القران إلى الأسرار والمعارف).

وهو الاسم الحقيقي للكتاب الذي ذكره الأمير نفسه في الموقف 360 من كتابه حين يقول (قيل لي زد في تسمية كتابك المواقف في بعض إشارات القران إلى الأسرار والمعارف)[30] وقد طبع الكتاب بطبعات مختلفة وتسميات أيضا مختلفة .

الطبعة الأولى كانت بمصر سنة 1911م (بعد وفاة الأمير ب29 سنة) اعتمادا على مخطوطة الشيخ عبد الرزاق، ثم طبع للمرة الثانية بدمشق عام 1866م تحت اسم المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد بدار اليقظة العربية بموافقة وإشراف الأمير محمد السعيد حفيد الأمير عبد القادر ويقول طابعها أن هذه الطبعة بوبت ورتبت بالاستناد إلى النسخة الأم الأصلية المكتوبة بخط الأمير نفسه وقوبلت على نسخة عالم الشام الكبير جمال الدين القاسمي المحفوظة بدار الكتب الظاهرة ونسخة الشيخ عبد الرزاق البيطار المحلات هوامشها بتقييدات وملاحظات بخط الأمير المؤلف كما قام بمراجعتها وتصحيحها لجنة من علماء دمشق.

وطبع الكتاب للمرة الثالثة بالجزائر عام 1996م بالتصوير المباشر من النسخة المحفوظة بالمكتبة الوطنية الجزائرية ونسخها الشيخ محمد الحاني تحت اسم مختصر (المواقف)، وطبع للمرة الرابعة في بيروت في دار الكتب العلمية سنة 2004م بتحقيق الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي، تحت اسم (المواقف الروحية والفيوضات السبوحية)[31].

اعتنى الأمير بعدد من **الحكم** التي انتقاها من التراث العربي وعددها ستة عشر حكمة موجودة بالمكتبة الوطنية الجزائرية بـ (الحامة) ، في مصنف خاص بوثائق الأمير عبد القادر[32] وقد سبق نشر جزء منها في صفحات تخللت مقالات مجلة الثقافة في عددها 75 عام 1983م وتتشابه هذه الحكم في شكلها من حيث البدء بالحمد لله حفاظا على شخصية الأمير الدينية ثم قوله: (وقال حكام العرب) أو (قال حكيم من العرب)، بعضها مؤرخا برمضان (1268هـ/ 1851م) والآخر بصفر (1269هـ/ 1852م) إلا أنها تتنوع في محتوياتها وتصب في هدف التعريف بالأخلاق العربية وبالحكمة العربية[33].

وقد اخترنا من هذه الحكم ما يعبر أكثر على تركيز الأمير على بعض المواضيع الهامة، والتي تدل على حسه العالي بعظمة وجودها، وضرورة زرعها في روح زواره أو إحيائها.

ولا ندري على أي أساس تم ترتيب هذه الحكم من 01 إلى 16 لكونها غير مرتبة حسب التواريخ ولا المضمون فكل واحدة مكتوب وسط ورقة كبيرة الحجم، أما إذا أردنا التعرف على محتوى الحكم فمعظمها يدور حول موضوع الخير والشر باعتبارهما محوران تدور حولهما الحياة جدالا بين شد وجذب[34] ويتحدث بعضها عن الإحسان والإساءة[35] فيم أشارت بعض الحكم إلى الأقدار والتباين بين الناس وتداول الأيام[36] واحتوت حكم أخرى أهمية الصدق ونبذ الكذب[37] وكانت أكثر هذه الحكم تعبر عن معنى الحرية عند الأمير ومفهومه الكامل عنها[38].

نستنتج من كل هذا أن الأمير كان يعرف أهمية الحكمة رأس الفضائل والتي تتأتى بقوة العلم بفضلها يكون التمييز بين الحق والباطل وبين الصدق والكذب وبين الحياة الأبدية والحياة الفانية .

4-2: مؤلفات الأمير في الشعر:

أما تراثه **الشعري** فقد تعامل الأمير عبد القادر بالشعر مع غيره مثلما تعامل به مع نفسه، حيث ربط قصائده بعروبته وأجداده الأوائل، لذلك فكثيرا ما كان يردد في غير موقف:

إذا جهلت مكانا للشعر في شرف فأي مفخرة أبقيت للعرب

ورغم أن فن الشعر عرف عجزا، كعجز المرحلة السياسية والعسكرية والاجتماعية التي عايشها إلا أنه استطاع أن يتعامل به، وما يدعم أغراض الشعر عند الأمير عبد القادر ويجعلها مقبولة من الناحية الفنية والأخلاقية ارتكازها على نقطتين أساسيتين: طبيعته الفروسية وثقافته الإسلامية،هذه الدوافع جعلت من الأمير عبد القادر شخصية صنعة الاستثناء في كل شيء فهو شاعر الحداثة في الجزائر وذلك بقدر ما أتاح له تكوينه الثقافي، ومحيطه الفكري فاستطاع أن يطابق بين موقفين: المجاهد والشاعر[39].

ومن بين أهم الأسباب التي ساهمت في استثارة الجانب الأدبي عند الأمير عبد القادر نذكر الحدث الأكبر الذي تعرضت له الجزائر، وهو الاستعمار الفرنسي، فقد جسّد آمال شعبه في شعره فصخره لقضية بلاده، متناولا كل الأغراض الشعرية التقليدية المعروفة في عهده، كالفخر، المدح، الغزل والوصف، ....

وقد وصف زكريا صيام شعر الأمير عبد القادر بقوله: (إنه استطاع من خلاله أن يجمع بين الأصالة والتجديد بما توفر لديه من ثورة هائلة لغوية، مكنته من اختيار اللفظ القوي للنهوض بالمعنى أضف إلى ذلك سعة أفقه الفني، والتاريخي، الديني، الاجتماعي، أتاحت له تجربة رائدة جعلته يقف في طليعة شعراء عصره[40].

وفي رأينا أن الكثير من شعر الأمير عبد القادر لا يزال مجهولا، ولا ندري أين يوجد، فيحتمل أن يكون كثيره في خزائن الشام، وقليله متفرق في الجزائر، وفرنسا وتركيا.

أما المعلوم منه فمعظمه جمعه ممدوح حقي، وحققه في الديوان المشهور (أشعار منتخبة) ويليه في الكمية والأهمية تحقيق زكريا صيام، ثم نزهة الخاطر في قرض الأمير عبد القادر، وهو توسع لما نشره ابنه محمد تحت نفس العنوان ويمكن إضافة ما جمعه وحققه العربي دوحو في ديوان مصدره التحقيقات التي ذكرناها، ولا يحمل الجدي ماعدا بعض التعليقات والشروحات.

ومن إنتاجه الأدبي والفكري تلك **الرسائل** التي بعث بها إلى كل من الخلافة العثمانية، الإيالة التونسية، أصدقاؤه وشركاؤه في المحنة (كالإمام شامل الداغستاني)، بعض ملوك أوروبا (ملكة إسبانيا إيزابيلا الثانية)، وبعض أصدقائه من الفرنسيين (بواسوني)[41].

خاتمة:

من خلال معالجتنا للموضوع، تمكنا من التوصل إلى جملة من الاستنتاجات نوردها فيما يلي:

1- إنّ عصر الأمير عبد القادر قد شهد نهضة تعليمية لو كتب لها الاستمرار لكانت صفحة مشرقة لدولته الوطنية فتلمسان وحدها مثلا وجدت بها خمسون مدرسة ابتدائية.

2- قدّم الأمير خلال القرن التاسع عشر صورة متكاملة عن الرجل العربي المثقف فحمل خصالا أبهرت أعدائه وهذا ما عبرت عنه الصحف الفرنسية بقولها أنه "رجل مفكر ومثقف ومتفتح" وأنه"رجل أدب".

3- وضع الأمير أسس الدولة الوطنية الجزائرية الحديثة لأنه لم يكن رجل حرب فقط بل صاحب قلم أيضا وأدلة ذلك مكتبته "أول مكتبة وطنية في الجزائر" حيث ضمت الكثير من المؤلفات في الفلسفة والمنطق والتاريخ والفكر.

4- يمكن القول أن الجانب الثقافي لعب دورا مهما في مقاومة الأمير عبد القادر لكنه لا يزال في حاجة إلى دراسة وبحث وهذا عكس الجوانب الأخرى وعلى رأسها العسكري والسياسي التي تحضا باهتمام بالغ من الباحثين والدارسين.

الهوامش:

[1] - إسماعيل العربي، **حكومة الأمير عبد القادر إدارتها ومهامها**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، عدد خاص، الجزائر، 1983، ص226.

[2] - هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص152.

[3] - أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر بداية الاحتلال**، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص ص158- 163.

[4] - صلاح أحمد، **الأمير عبد القادر المتصوف والمصلح**، منشورات دار الأديب، وهران، 2007، ص27.

[5] - أدريان بير بروجير، **مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في بويرة (1837- 1838)**، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2010، ص69-ص70.

[6] - نفسه ، ص113.

[7] -BRUNO Etienne, Abdelkader isthme des isthmes, Editons SEDIA, Alger, 2010 ,P118.

[8] – – عبد القادر بوطالب ، **الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير**، دار دحلب، الجزائر، 2009.، ص104.

[9] -BRUNO Etienne,Op,Cit,P122.

[10] – أديب حرب ، **التاريخ الإداري والعسكري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847**، ج1، ط2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2004، ص71.

[11] – يحي بوعزيز، **الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983، ص142.

[12] – محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، دار الكتاب العلمية، بيروت، 1966، ص26

[13] – جورج الراعي، **الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر... إلى عبد القادر**، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2008، ص76.

[14] – محمد بن عبد القادر ، نفسه، ص28.

[15] – نفسه ، ص66.

[16] نفسه، ص77- ص78.

[17] – محمد بن عبد القادر تحفة الزائر...، المصدر السابق ، ص83.

[18] – تشرشل، المرجع السابق، ص314.

[19] – حمد بن أحمد كنعان القاضي ، **تاريخ الدولة الأموية خلاصة تاريخ ابن كثير**، مؤسسة المعارف، بيروت، 1997، ص62- ص63.

[20] – محمد بن عبد القادر ، نفسه، ص118.

[21] – محمد بن عبد القادر تحفة الزائر...، المصدر السابق ، ص123- ص124.

[22] – تشرشل، المرجع السابق،ص393.

[23] – جواد مرابط، **التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري**، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1966 ، ص63.

[24] – محمد بن عبد القادر ، نفسه، ص267.

[25] – معظم من تصدى لكتابة الأمير عبد القادر من مؤرخين أوروبيين لاسيما منهم متفقون على أن هذه الرسالة من إملاء الأمير وترتيب كاتب الأمير قدور بن رويلة. راجع كل هذه الإثباتات في كتاب: **وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب ويليه ديوان العسكري المحمدي المليانى**، تقديم محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968.

[26] – فؤاد صالح السيد، **الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص100.

أنظر أيضا: خديجة شيخي، **المقاومة الثقافية في فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، رسالة لنيل شهادة دكتوراه في علم الاجتماع الثقافي، جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله، 2016/ 2017، ص333.

[27] – عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص02.

[28] – محمد بن عبد القادر تحفة الزائر...، المصدر السابق، ج2، ص63.

[29] – سعد الله حياة الأمير عبد القادر...، المرجع السابق، ص24.

[30] – فؤاد صالح السيد ، المرجع السابق، ص101.

[31] – الأمير عبد القادر، **المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف**، تحقيق عبد الباقي عبد الفتاح، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2005، ص482.

[32] – أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية: **ملف وثائق الأمير عبد القادر**، وثيقة رقم 072619 ، مجموعة الحكم من 1 إلى 16.

[33] – محمد بلغراد، " الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر الجزائري"، **مجلة التاريخ**، عدد خاص بوفاة الأمير عبد القادر الجزائري، 1983.

[34] – أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية: ، وثيقة رقم 072619، الحكمة رقم 05.

[35] – وثيقة رقم 072619، الحكمة رقم 11.

[36] – وثيقة رقم 072619، الحكمة رقم 13.

[37] – وثيقة رقم 072619، الحكمة رقم 04.

[38] – وثيقة رقم 072619، الحكمة رقم 09.

[39] – صالح خرفي ، **في ذكرى الأمير عبد القادر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص31.

[40] – زكريا صيام، "الأصالة والتجديد في شعر الأمير عبد القادر"، **مجلة الثقافة الجزائرية** (عدد خاص)، رقم 75، 1983، ص295.

[41] – أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية: **ملف ورسائل الأمير عبد القادر**، دون ترقيم، رسالة رقم 26.

قائمة المصادر والمراجع:

– الوثائق الأرشيفية:

1– أرشـــيف المكتبة الوطنية الجزائرية: **ملف وثائق الأمير عبد القادر**، وثيقة رقم 072619 ، مجموعة الحكم من 1 إلى 16.

2– أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية: **ملف ورسائل الأمير عبد القادر**، دون ترقيم، رسالة رقم 26.

– المصادر:

3– ابن رويلة (قدور)، **وشـــاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب ويليه ديوان العســـكري المحمدي المليانى**، تقديم محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968.

4– الجزائري (الأمير عبد القادر)، **المواقف في بعض إشـــارات القرآن إلى الأســـرار والمعارف**، تحقيق عبد الباقي عبد الفتاح، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2005.

5– الجزائري (محمد بن الأمير عبد القادر) ، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، دار الكتاب العلمية، بيروت، 1966.

– المراجع:

6– العربي (إسماعيل) ، **حكومة الأمير عبد القادر إدارتها ومهامها**، الشـركة الوطنية للنشـر والتوزيع، عدد خاص، الجزائر، 1983.

7– الراعي (جورج) ، **الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر... إلى عبد القادر**، دار القصـــبة للنشر، الجزائر، 2008.

8– القاضـي (حمد بن أحمد كنعان)، **تاريخ الدولة الأموية خلاصـة تاريخ ابن كثير**، مؤسـسـة المعارف، بيروت، 1997.

9- بوطالب (عبد القادر) ، **الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير**، دار دحلب، الجزائر، 2009.

10- بوعزيز (يحي) ، **الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983.

11- بير بروجير (أدريان) ، **مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في بويرة (1837– 1838)**، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2010.

12- تشرشل (هنري) ، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

13- حرب (أديب) ، **التاريخ الإداري والعسكري للأمير عبد القادر الجزائري 1808–1847**، ج1، ط2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2004.

14- خرفي (صالح) ، **في ذكرى الأمير عبد القادر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

15- سعد الله (أبو القاسم) ، **محاضرات في تاريخ الجزائر بداية الاحتلال**، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

16- صالح السيد (فؤاد) ، **الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

17- صلاح (أحمد)، **الأمير عبد القادر المتصوف والمصلح**، منشورات دار الأديب، وهران، 2007.

18- مرابط (جواد) ، **التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري**، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1966.

19-ETIENNE Bruno ,Abdelkader isthme des isthmes, Editon SEDIA, Alger, 2010 .

– المقالات:

20- بلغراد (محمد) ، " الجانب الصـــوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر الجزائري"، **مجلة التاريخ**، عدد خاص بوفاة الأمير عبد القادر الجزائري، 1983.

21- صـــيام (زكريا) ، "الأصـــالة والتجديد في شـــعر الأمير عبد القادر"، **مجلة الثقافة الجزائرية** (عدد خاص)، رقم 75، 1983.

- الدراسات الأكاديمية:

22- شيخي (خديجة) ، **المقاومة الثقافية في فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، رسالة لنيل شهادة دكتوراه في علم الاجتماع الثقافي، جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله، 2016/ 2017.